

دور الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) في تحجيم التحالف المغولي - الأرمني - الصليبي

د. صفوان طه حسن الناصر

كلية التربية / جامعة الموصل

القبول

الاستلام

٢٠٠٨ / ٠٧ / ٢٢

٢٠٠٨ / ٠٦ / ٠٣

Abstract

The Mamlukid Sultan Baibars was one of the prominent Sultans of his time in military leadership and efficiency. He achieved many victories over the Ilkhanid mongols, Armenians and Crusaders. His military movements coincided with the Political movements to achieve his victories.

He also was very careful in preserving the secrecy of his military plans and movements against his enemies to secure success for his Campaigns. By this he was able to confront and contain the Mangol-Armenian alliance, so they and the Crusaders failed in undertaking a joint military action against him until (680A.H/1281A.D). But after 4 Years from his death the Armenians, Crassians and Mangols took part in the great battle of Homs against the Mamluks.

الملخص

امتلك الظاهر بيبرس مقدرة قتالية عالية فاق بها اقرانه من سلاطين عصره، وحقق انتصارات عديدة على جبهات عدة مع المغول الايلخانيين والارمن والصليبيين . تزامن عنده العمل العسكري مع العمل السياسي فاغلب معاركه كان يخطط لها مسبقاً ويعد لها عسكرياً وسياسياً لضمان إحراز النصر على اعدائه وحاول أن يجد أكثر من طريق وسبيل لتحقيق النصر على أعدائه. كان الملك الظاهر شديد الحرص على سرية تحركاته العسكرية ضد اعدائه فباغتهم بها إذ لم تكن انتصاراته العديدة ضربة من ضربات الحظ حققها في غفلة من الزمن، وأخيراً تمكن الملك الظاهر من تحجيم التحالف الارمني المغولي فلم يتمكن الارمن والمغول والصليبيون

في حياته من القيام بعمل عسكري موحد ضده حتى سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م)، إذ شارك الأرمن والكرج والمغول في معركة كبيرة ضد المماليك في معركة حمص، بعد وفاة الملك الظاهر بربع سنوات.

* توطئة :-

تعد فتوة حكم الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٥٩-١٢٧٧ م) من الفترات الحرجة التي مرت بها دولة المماليك الأولى (البحرية)، بصورة خاصة والبلاد الإسلامية بصورة عامة، إذ حملت على عاتقها منذ انتصارها على المغول في معركة عين جالوت، (٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م)، ودخول بلاد الشام ضمن السيادة المملوكية ، مواجهة خطر المغول الايلخانيين وأطما عهم التوسعية في بلاد الشام ومصر ، وخطر الوجود الصليبي في الساحل الشامي، فضلا عن ترصص ملك أرمينية الصغرى في الحصول على مكاسب اكبر في حالة انتصار المغول على المماليك في معركة فاصلة بعد معركة عين جالوت. إن ما قام به الظاهر بيبرس منذ توليه الحكم من أعمال سياسية وعسكرية جعلت مملكته اكبر قوة عربية إسلامية في المنطقة، إذ تمكن وبمدة وجيزة من التغلب على جميع منافئيه من الأمراء المماليك والأيوبيين في مصر وبلاد الشام فلم تمض سنة (٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م) حتى دانت له مصر وبلاد الشام بالولاء.

* التحالف المغولي - الأرمني - الصليبي :-

سبق تولي الظاهر بيبرس الحكم قيام حلف سياسي عسكري مغولي ارمني صليبي، هدفه القيام بعمل عسكري ضد المسلمين، وخاصة في العراق وبلاد الشام ومصر فلما تولى الظاهر بيبرس الحكم كان من ضمن أهدافه الوقوف بوجه ذلك التحالف البغيظ. تصاعد نشاط المغول التوسعي تدريجيا نحو البلاد الاسلامية فاحتلوا إقليم أران وأذربيجان، وصولا إلى أطراف مملكة سلاجقة الروم التي خضعت لهم في سنة (٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م)^(١)، ونظراً لما لاقاه ملك أرمينية (Armenia) الصغرى هيتوم الأول (HetoumI)، (٦٢٤ هـ- ٦٦٧ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٦٨ م)^(٢)، من خسائر مادية وعسكرية على يد سلاجقة الروم، أدرك ان من مصلحته إعلان تبعيته للسيد الجديد (المغول) والا سيكون فريسة للقوات المغولية السلجوقية لا محالة.

كان أول اتصال للأرمن مع المغول سنة (٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م) ، إذ أرسل ملك أرمينية الصغرى أخاه سمباد (Sempad) إلى بلاد الخان الأعظم في قرقورم (Karakorum)^(٣)، وحصل على تعهدات لضمان عدم تعرض المغول والسلاجقة لبلاده، مقابل إعلان تبعية ارمينية

الصغرى للمغول^(٤)، واستغل ملك أرمينية تولي الخان الجديد فذهب بنفسه إلى عاصمة المغول لتهنئة الخان الجديد وتوثيق عرى التحالف الأرمني المغولي سنة (٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م)^(٥)، الذي نص على:-

- أن يكون هيتوم أحد مستشاري الخان الأعظم في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا.
 - تعفى الأديرة والكنائس التابعة لهيتوم من الضرائب.
 - إذا تعاونت القوى المسيحية (الأرمن والصلبيين في بلاد الشام) مع المغول وقوات هولاكو (Hulagu)، تحديدا يتعهد المغول بإعادة بيت المقدس إلى الصليبيين.^(٦)
- عاد هيتوم من العاصمة المغولية محملا بالهدايا والوعود إثر قيام تحالف صليبي مغولي تكون الزعامة فيه للمغول، إذ أطلع صهره بوهيمند السادس (Bohemond VI) (٦٤٨ - ٦٧٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٧٤ م) أمير إنطاكية وطرابلس على بنود الاتفاق، وتمكن من ضمه إلى ذلك التحالف ضد المسلمين أملا في الحصول على مكاسب عسكرية وسياسية من جراء ذلك^(٧)، وبالفعل قدم ملك أرمينية الصغرى هيتوم الأول المساعدات كافة للقوات المغولية التي قامت باجتياح بلاد الشام حتى انتهوا إلى مدينة دمشق إذ حرص هولاكو قائد الجيش المغولي على تقديم المكافأة لملك أرمينية وأمير إنطاكية، فلعاد لملك أرمينية العديد من الحصون والقلاع التي استولى عليها السلاجقة سابقاً، وأعطى أمير إنطاكية اللاذقية، ودير كوش^(٨)، وتلمنس^(٩) وشقيف دبين^(١٠) مكافأة له^(١١).

أثار التعاون الأرمني المغولي امتعاض الأمراء الصليبيين في بلاد الشام الذين لم يرضوا من البدء الدخول في التحالف المغولي لأن ذلك سيجعل تبعيتهم للمغول بدل البابوية^(١٢)، لذلك انحصر التحالف بين الثلاثة المغول الإيلخانيين، ومملكة أرمينية الصغرى وإمارة انطاكية - طرابلس.

* بلاد الشام بعد رحيل هولاكو :-

لم يبق أمام هولاكو بعد إخضاعه لبلاد الشام سوى السيطرة على مصر، فأرسل إليها خطابا شديد اللهجة يطلب من المماليك التسليم له، لكن الظروف والأحوال في مقر الخان الأعظم قرقورم كانت تنذر بالخطر على ممتلكات هولاكو فيما إذا تولى الحكم خان ليس على وفاق مع هولاكو^(١٣)، فانسحب الأخير مع قسم كبير من جيشه إلى منغوليا تاركا في بلاد الشام قوة تقدر بين عشرة إلى اثني عشر ألف مقاتل تلبية لطلب ملك أرمينية وأمير انطاكية وطرابلس خوفا من قيام المماليك بعمل عسكري ضدهم^(١٤).

أثار الخطاب الذي أرسله هولاكو إلى مصر حفيظة المماليك، الذين كانوا يعدون العدة لمواجهة عسكرية مع المغول، فكانت الفرصة مواتية بعد انسحاب القوات المغولية مع قائدهم

هولاكو فخرجوا اليهم في جيش قوامه اكثر من ثلاثين ألفا ، والتقى الجيشان في منطقة عين جالوت أذ سميت المعركة بذلك الاسم نسبة للمكان الذي دارت فيه^(١٥).

وكما توقع ملك ارمينية فقد اقترب خطر المماليك من بلاده اذ اصبحت بلاد الشام تابعة لهم بعد انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت، (٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م)، فأخذ ملك الارمن يعد لمواجهة محتملة مع المماليك ويطلب العون من هولاكو خان الذي كون له دولة سميت بالدولة الايلخانية شملت أقاليم اران وأذربيجان وخراسان وبلاد فارس والعراق حتى نهر الفرات شمالا ودانت بالتبعية له سلطنة سلاجقة الروم ومملكة أرمينية الصغرى وامارة أنطاكية وطرابلس^(١٦).

* تحرشات مملكة أرمينية الصغرى :-

كما ذكرنا انشغل الايلخانيون (Il-Khans) بمشاكلهم الداخلية والخارجية مع ابنا ء جلدتهم من المغول القفجاق (Qipchak) - والمغول الجغتاي (Chagatiids)^(١٧)، فأصبح ملك أرمينية الصغرى في وضع لا يحسد عليه في مواجهة المماليك الذين اقتربوا من بلاده بسيطرتهم على بلاد الشام، فبادر بالتحرش بهم وظهر في حال الضعف القوة ، فعمد ولأكثر من مرة الى التعرض لممتلكات الدولة المملوكية في بلاد الشام.

ففي سنة (٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م) استغل ملك أرمينيا الصغرى انشغال الملك الظاهر بشؤون بلاده الداخلية، فلقدّم على التعرض للمناطق المجاورة لبلاده في بلاد الشام، فأغار على المعركة وسرّيم والفوعة، وقام أمراء المماليك من نواب الملك الظاهر في هذه المدن بتجميع قوات من العسكر والمتطوعة من أهل تلك المناطق لمواجهة القوات الأرمينية واستطاعوا من ردها وأرسلوا إلى الملك الظاهر لأعلامه بذلك . وفي سنة (٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م)، ذهب ملك أرمينية الى البلاط المغولي للتحريض والحصول على مساعدات عسكرية لاخذ الثار من المماليك^(١٨)، لكن جهوده باءت بالفشل وعن ذلك ذكر ابن عبد الظاهر بقوله "في هذه السنة (٦٢٢ هـ) وصل هيتوم بن قسطنطين متملك الارمن - خذله الله - من جهة هولاكو - خزاه الله - ... واهتم الارمني بجمع العساكر المخذولة في بلاده لقصد البلاد الاسلامية وكتب الى التتار الذين كانوا في الروم وهم سبعمائة راكب فاحضرهم وكان قصده الشام، ... وكان الطاغية المذكور كتب الى انطاكية يطلب النجدة فانجد منها بمئة وخمسين فارسا ولبس الجميع السراقوجات^(١٩) تشبها بالتتار واجتمعوا كلهم قريب من حارم"^(٢٠).

كان غرض ملك أرمينية هيتوم هو ارباب المماليك وتخويفهم بما في حوزته من قوات مغولية تساعد في المواجهة ضد المماليك اذ قام بحيلة هدفها التخويف في سنة (٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م) على ما ذكره ابن عبد الظاهر^(٢١)، "اهتم متملك الأرمن هيتوم وجمع العساكر المخذولة

من كل جهة وفصل الف قباء تترى، والف سراقوج البسها (جنده) ليرهب انها نجدة من التتار ". هذا ان دل على شيء انما يدل على ضعف مملكة ارمينية الصغرى وفشلها في تحقيق تعاون فعلي وكبير مع المغول الايلخانيين ضد المماليك.

أدرك بيبرس مدى التخطيط السياسي والعسكري الذي يعانيه المغول الايلخانيون مما أضعف التحالف المغولي الارمني الصليبي، فلم يترك تلك التحرشات والأعمال السيئة التي قام بها الارمن أن تمر دون عقاب، اذ ركز اهتمامه في السنوات الاولى من توليه الحكم الى تحسين موقفه في بلاد الشام والسيطرة على زمام الامور فبعد العديد من الهدن مع الامراء الصليبيين في بلاد الشام مع أمراء عكا، بيروت، صور، يافا^(٢٢)، وتمكن في سنة (٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م) من فتح مدينتي قيسارية وارسوف على الساحل الشامي^(٢٣)، وفتح في سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م) مدينة صفد،^(٢٤) وجعل امير إنطاكية وطرابلس نتيجة لذلك بمعزل عن الامارات الصليبية الأخرى، فأصبح في موقف ضعيف جدا امام قوة المماليك المتنامية.

* نشاط بيبرس السياسي والعسكري لمواجهة التحالف الارمني - المغولي - الصليبي :-

أ- على الصعيد السياسي :-

في الوقت الذي كان المشرق الاسلامي يعاني من ازمة قيادات عسكرية سياسية قوية، وبحاجة إلى قائد عسكري يحمي ويحافظ على ما تبقى من البلاد الاسلامية لصد اطماع المغول المستعمرين الجدد، والصليبيين الذين عشغخوا في بلاد الشام لأكثر من قرن ونصف، لا بل إن نشاطهم تصاعد حتى حاولوا السيطرة على مصر نفسها^(٢٥).

امتلك الملك الظاهر مواهب عسكرية وسياسية لم يجاراه فيها احد من سلاطين عصره، فشهد له بذلك القاضي والداني، حتى إننا نجد له سيرة شعبية يتغنى بها الناس بعد وفاته، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على شهرته وبعد صيته^(٢٦)، أرك بيبرس منذ البداية حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه في مواجهة المغول والصليبيين وكان من أهم اهدافه السياسية والعسكرية تفكيك التحالف المغولي - الارمني - الصليبي.

عمد الظاهر بيبرس الى عمل تحالف مع مغول القفجاق بر كة (Berke) خان (٦٥٥ - ٦٦٥ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٦ م)^(٢٧)، الذي كان على خلاف كبير مع هولاكو حول نصيب بيت جوجي (Juchi) خان (مغول القفجاق)،^(٢٨) في الغنائم التي حازها هولاكو في حملاته على المشرق الاسلامي، كما اعترض على قتل هولاكو الخليفة العباسي، فضلا عن أن الطرفين كانا على خلاف حول تنصيب الخان الاعظم مما اسفر عن مواجهة عسكرية في سنة (٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) ولم اكان هولاكو يميل الى تعيين أخ يه الأكبر قوبيلاي (Khubilai) خان، خانا أعظما للمغول، أراد بركة خان أن يساعد ويساند الأخ الأصغر أريق بوقا (Areq-buka) كي

يتولى حكم الامباطورية المغولية، وقد أعرب هولاء عن امتعاضه من تصرفات بركة خان بقوله "ولو أنه - بركة - كبير الأسرة وسيدها الا أنه لا يرعى الحياء والخجل ويخاطبني بتهديد وعنف وأنا لا أحابه بعد هذا أبدا"^(٢٩).

النقت مصلحة بركة خان مع طموح الظاهر بيبرس في عمل حلف سياسي عسكري ضد المغول الايلخانيين، مع مغول القفجاق اذ شغل الخلاف بينهم فترة طويلة نسبياً من الزمن حتى وفاة بركة خان سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م) ولم تصح المملكة الايلخانية منها الا على اثر قيام مغول الجغتاي بهجوم كبير عليها بقيادة أحد أمرائها ويدعى براق (Beraqu)، الذي احتضنه قوبلاي خان فترة من الزمن ثم تمرد براق عليه وأراد الأخير أن يستولي على الحكم في امباطورية المغول في منغوليا والصين وحتى بلاد القفجاق والمغول الايلخانيين، ولم يتمكن المغول من القضاء على تمرده حتى أواخر سنة (٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م)^(٣٠)، الأمر الذي اعطى للظاهر بيبرس فرجة من الزمن لمواجهة لملك ارميني هيتوم وامير انطاكية وطرابلس.

ب - على الصعيد العسكري :-

♦ حملة سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م) على ارمينية الصغرى :-

اخذت الامور تسير شيئاً فشيئاً نحو المواجهة مع ارمينية الصغرى ففي الوقت الذي كان الظاهر بيبرس منشغلاً مع الصليبيين في بلاد الشام^(٣١) اصدر أوامره الى قواته بالتوجه الى ارمينية وأن تنقسم الى قسمين، الأول بقيادة أمير حماه الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ / ١٢٤٤ - ١٢٨٤ م)^(٣٢)، والثاني بقيادة الامير سيف الدين قلاوون الالفى، في ربيع سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م)، إذ سار الجيش في مناطق وعرة بعد سيطرته على حصن دير بساك الواقع على طريق الامداد من امارة انطاكية^(٣٣)، ولم يتوقع الارمن دخول الجيش المملوكي في هذه الطرق الصعبة فبوغت الجيش الارمني وقتل في المعركة ابن ملكه م واسر الاخر، كما قتل العديد من افراد الاسرة المالكة واسر من بينهم اخو الملك الكنداسطبل (Constable)^(٣٤) واسر ولده أيضاً.

تولى قيادة الجيش المملوكي في داخل البلاد الارمن نية الملك المنصور امير حماة، فأغارت قواته على مناطق حموص^(٣٥)، ودخلت كونجيل من عمل سرفند كار^(٣٦)، ثم أشرفت على تل حمدون ثم أحرقوا حموص نفسها ونزلوا على قلعة تابعة لهيئة الفرسان الداوية، وتسمى العمودين وفيها جماعة من المغول "وكان فيها تتر تقاتل وغيرهم الفان ومائتا نفر"^(٣٧).

توغل جيش المماليك داخل مدن الارمن فدخل مدينة سيس^(٣٨) العاصمة وقاموا بتخريبها وارسل قسماً من الجيش المملوكي بقيادة الامير عز الدين اوغ ان الى جهة سلاجقة الروم لقطع أي امداد يقدم به المغول لنجدة الارمن، وقام الامير سيف الدين قلاوون بقيادة جزء من الجيش

المملوكي ودخل مدينة المصيصة ^(٣٩)، وإياس ^(٤٠) وطرطوس ^(٤١) "فقتلوا واحرقوا وهدمت قلعة الديوية المعروفة بالثنيات" ^(٤٢).

استنزفت تلك الحملة مقدرة مملكة أرمينية الصغرى العسكرية وأضعفتها اقتصادياً ، حيث عادت القوات المملوكية محملة بالغنائم مع أربعين ألف أسير، ولم يشهد التاريخ بعدها قيام مملكة أرمينية الصغرى بأي عمل عسكري ضد المماليك حتى وفاة هيتوم الأول سنة (٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م) ^(٤٣). من جانب آخر باءت محاولات هـ يتوم الأول في تجهيز حملة مغولية ضد المماليك وذلك لان المغول الأيلخانيين كانوا مهددين في تلك الفترة من المغول القفجاق ^(٤٤)، مما اضعف موقف ملك أرمينية كثيراً امام القوة المملوكية، ودفعه إلى التفاوض مع المماليك حول مصير ابنه "اليو" الأسير لدى المماليك، واضطر أخيراً الى النزول عند رغبة الملك الظاهر وعقد صلحا معه في أواخر سنة (٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م)، وسنبنين ذلك لاحقاً ^(٤٥).

* الحملة على اماره انطاكية وطرابلس :-

بقيت المفاوضات بين ملك أرمينية الصغرى والظاهر بيبرس معلقة، فلم يجب الظاهر بيبرس رسل ملك أرمينية الصغرى الذين قدموا إلى بلاطه سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) محملين بالهدايا وكان هدف الملك الظاهر تحييد مملكة أرمينية الصغرى والتمهيد لعمل عسكري كبير ضد اماره انطاكية وطرابلس.

تعد مدينة انطاكية ثاني امارات الصليبيين في المشرق الاسلامي بعد الرها ^(٤٦)، وكانت في فترة حكم الظاهر بيبرس من اهم المعاقل الصليبية في المشرق، تابعة للأمير بوهيمند السادس (أمير إنطاكية وطرابلس)، صهر ملك أرمينية الصغرى والتي مثلت - المحور الثالث في التحالف المغولي الأرمني الصليبي ، إذ حاصر الملك الظاهر طرابلس لأكثر من اسبوعين واشتد في حصارها في سنة (٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) ^(٤٧)، هدفه من ذلك إيهام أميرها ان همه فتحها ثم ابقى قلة من قواته محاصرة لها واتجه مع جيشه الى حمص ثم الى حماه، وهناك قسم جيشه الى ثلاثة اقسام واوكل لكل قسم منها مهمة رئيسة يقوم بها ثم يلتقي بهم في مشارف مدينة انطاكية لغرض فتحها ^(٤٨). فاتجه القسم الاول بقيادة بدر الدين الخزندار الى ميناء السويدية ، لقطع الإمدادات البحرية لنجدة إنطاكية ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين إيفان اتجه الى دير بساك الواقع على طريق امداد انطاكية من أرمينية الصغرى لقطع أي امداد بري منها لأنطاكية، أما القسم الثالث فاتجه مباشرة الى مدينة انطاكية وكان بقيادة الظاهر بيبرس ^(٤٩).

اكتمل الجيش المملوكي على مشارف مدينة انطاكية بعد أن ادى كل قسم مهمته بنجاح فقام الظاهر بيبرس بحصار المدينة أوائل شهر رمضان ^(٥٠) ولم يكن نائب أمير طرابلس بالمستوى المطلوب من تقدير عواقب الخروج بالجيش الأنطاكي في مواجهة المماليك،

فسرعان ما خسر المعركة مع المماليك واسر مع جماعة كبيرة من جند انطاكية^(٥١)، وعندما وقع بالأسر طلب منه الظاهر بيبرس أن يكون الوساطة مع اهل انطاكية لغرض التسليم الا ان المفاوضات طالت لمدة ثلاثة ايام بعدها أمر الظاهر بيبرس بالهجوم الشامل على المدينة فتمكن من فتحها في ١٤ من شهر رمضان من سنة (٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م)^(٥٢). كان فتح انطاكية من الاعمال الجليلة التي قام بها الملك الظاهر لانها كسرت معنويات الصليبيين واذنت بانتهاء وجودهم في بلاد الشام وكانت هذه الخطوة الثانية في تفكيك التحالف المغولي - الارمني الصليبي، بعد فتح انطاكية اخذ الظاهر بيبرس القلاع التابعة لأمير انطاكية وطرابلس "شقيف تلمنس، دير كوش، وشقيف ديبين"^(٥٣).

* مفاوضات ملك ارمينية الصغرى مع الملك الظاهر بيبرس :-

تمكن الملك الظاهر عسكرياً من تحجيم التحالف المغولي الارمني الصليبي الى حد ما حتى سنة (٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) إذ بدأت المساعي الدبلوماسية لمملكة ارمينية تفعل فعلها في هذه السنة بعد ان تمكن بيبرس من سحق قواتها العسكرية في سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م) ومنذ تلك الفترة بدأت المفاوضات الدبلوماسية بين ملك ارمينية الصغرى والملك الظاهر، وبعد ان انتهى الملك الظاهر من فتح مدينة انطاكية استجاب الى طلب ملك ارمينية الصغرى الى طلبه في رد ابنه وعُقد صلح بين الطرفين^(٥٤).

أراد الملك الظاهر ان يستغل موقفه القوي في ارغام ملك ارمينية في التنازل عن بعض القلاع والحصون المهمة فضلاً عن إعادة الامير سنقر الأشقر، الذي أسره المغول في اجتياحهم لحلب سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) مقابل عودة الامير ليو ولي عهد ملك ارمينية إليه^(٥٥). وبعد أكثر من سنة من المفاوضات استطاع ملك ارمينية إعادة الأمير سنقر الأشقر الى بيبرس لكنه اراد ان يقلل من عدد الحصون التي اتفق على التنازل عنها لكن بيبرس اصر على تنفيذ كل بنود الاتفاق^(٥٦)، فأرسل إليه في ذلك قائلاً: "بأنك ان كنت قسوت على ولدك وولي عهدك انا اقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني ونحن خلف كتابنا مهما شئت افعل بسنقر الأشقر"^(٥٧).

تنازل ملك ارمينية الصغرى لقاء إعادة ولده اليه عن العديد من الحصون المهمة الواقعة على الطريق التجاري بين سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى فضلاً عن أهميتها العسكرية وهي: "البهسنا"^(٥٨) والدرساك ومرزيان،^(٥٩) رعبان،^(٦٠) وشيخ حديد...، مع دفع إتاوة سنوية تدفع للمماليك وضمان سلامة التجار المصريين في بلاد ارمينية الصغرى مع ضمان عدم القيام بأي عمل عسكري ضد المماليك^(٦١).

أصبح ملك أرمينية هيتوم حرجاً جداً فهو في صلح همع الممالك وحلف مع المغول الايلخانيين فاخذ يتوسط بين الطرفين لغرض عقد الصلح بينهما^(٦٢)، وهنا نجد التحول الكبير في سياسة ملك أرمينية المعادية للمسلمين، فرضتها عليه جهود الظاهر بيبرس السياسية والعسكرية، فطلب الملك الظاهر من ملك أرمينية ان يتوسط في اعادة بعض الاسرى لدى المغول الايلخانيين مقابل أموال فداءً لهم لكن المغول فسروا ذلك تنازلاً من بيبرس وقبولاً بالتبعية لهم كما هو حال ملك أرمينية الصغرى وامبراطور بيزنطة، ففشلت تلك الوساطة^(٦٣).

* الحملة الثانية على أرمينية الصغرى سنة (٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م) : -

بدأت العلاقات تتوتر بين مملكة أرمينية والممالك عقب موت ملكها هيتوم سنة (٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م)، كما ان العلاقات مع المغول الايلخانيين بدأت هي الاخرى تاخذ مأخذ المواجهة خصوصاً بعد انتصار الايلخانيين مع مغول الجغتاي سنة (٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م)^(٦٤)، الأمر الذي دفع بملك المغول الى ان يرسل الى الملك الظاهر يطلب فيه ان يدخل في طاعته الا ان الملك بيبرس رفض ذلك بشدة وهدده بالقيام بعمل عسكري موحد ضدهم مع مغول القفجاق^(٦٥)، كل تلك الظروف مكنت ملك أرمينية الجديد ليو (Leon III) (٦٦٧-٦٨٨ هـ / ١٢٦٨-١٢٨٩ م)، من التوصل من بنود الصلح المعقود مع أبيه^(٦٦)، فأدرك الظاهر بيبرس انه لا بد من العمل بسرعة لمواجهة تحالف مغولي ارمني جديد، فأسرع بالضغط السياسي والعسكري على الامارات الصليبية وكتبها بهدن لمدة عشر سنوات شملت امارة طرابلس ذات الصلة الوثيقة بمملكة أرمينية الصغرى^(٦٧).

هكذا تفرغ الظاهر بيبرس الى مواجهة المغول الايلخانيين الذين قاموا بتعرض عسكري على منطقة البيرة سنة (٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) فأرسل بيبرس قواته اليها ثم سار هو بنفسه لقتال المغول^(٦٨)، لكن المغول كمنوا للمالك بعملية عسكرية ادت الى خسارة كبيرة في جيش الظاهر بيبرس، لكنه أظهر قوة وجلداً في احتمال تلك المكيدة وتحويل الهزيمة الى نصر فتمكن من هزيمة المغول، ثم قام بتحصين مدينة البيرة بما غنمه من اسلحة واموال من المغول في تلك المعركة^(٦٩).

كانت معركة البيرة بداية التوتر السياسي بين الملك الظاهر ومملكة أرمينية الصغرى والمغول الايلخانيين، إذ قام أهل مدينة كينوك^(٧٠)، سنة (٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) التابعة لمملكة أرمينية الصغرى بالتعدي على تجار المسلمين في بلادهم وكتب الملك الظاهر الى ملك أرمينية في ذلك فلم يجد ذلك نفعا بل استمر ملكها في نقض الصلح الذي عقده ابوه مع الملك الظاهر، حيث قطع الأموال التي كان يدفعها أبوه سنوياً للممالك^(٧١).

أخذت الأمور تتجه نحو المواجهة العسكرية مع مملكة أرمينية، فقد ذكر ابن عبد الظاهر، في أسباب حملة بيبرس الثانية على مملكة أرمينية سنة (٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م) بقوله: "وكان صاحب سبب قد قطع الهدايا المقررة عليه وخالف شروط الهدنة من أنه لا يجدد بناء ولا يحصن قلعة وصار لا يطالع بخبر صحيح كما تقرر معه بمقتضى الإيمان ويلبس الأرمن السراجوقات ويخيف بهم القوافل ويدعي أنهم عسكر القان"^(٧٢).

أوهم الملك الظاهر العيون والجواسيس بأنه متجه إلى الشام دون إعلان قصده بين أمراء جيشه، الذي أخذ يتزايد كلما تقدم في بلاد الشام، وإنضاف إليه عسكر حماة بقيادة أم يرههم الملك المنصور، وكذلك عرب آل مهنا^(٧٣). واختار وقت الشتاء لكي يباغت فيه قوات أرمينية الصغرى ويأخذهم على حين غرة فلجأت مناطق وعرة غطتها الثلوج ودخل مدينة المصيصة ثم سار إلى مدينة سبب العاصمة، ثم دخل الدربند، لقطع أية محاولة للمغول لنجدة مملكة أرمينية الصغرى^(٧٤).

قام الملك الظاهر بحرق مدينة سبب ثم حرق مدينة المصيصة وخربها وعاد جيشه محملاً بالغنائم، هدف الملك الظاهر من وراء ذلك إلى أن لا تقوم قائمة لأرمينية بعد هذه الموقعة ومنع أي تحالف مغولي أرميني ضده، وكما عودنا الملك الظاهر فإن هذه الحملة كانت مقدمة لحملة أكبر هدفها القضاء على الحامية المغولية في إقليم سلاجقة الروم وهذا ما قام به فعلاً في سنة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م)، فاضعف مملكة أرمينية كثيراً بعد أن حرق معظم مدنها^(٧٥)، حقق الملك الظاهر غايته في شل قوة أرمينية الصغرى فعمد بعد سنتين من هذه الواقعة إلى مقاتلة الحامية المغولية التي بلغ تعدادها أكثر من عشرة آلاف فارس في معركة البلستين سنة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م) والتي خسر فيها المغول الأيلخانيين خيرة قوادهم وزهاء سبعة آلاف فارس، وكانت هذه المعركة التي انتصر فيها الملك الظاهر آخر معاركه التي توفي بعدها بعدة أشهر^(٧٧).

الخلاصة :

امتلك الظاهر بيبرس مقدرة قتالية عالية فاق بها أقرانه من سلاطين عصره، وحققت انتصارات عديدة على جبهات عدة مع المغول الأيلخانيين والأرمن والصليبيين . تزامن العمل العسكري مع العمل السياسي فاعلّب معاركه كان يخطط لها مسبقاً ويعد لها عسكرياً وسياسياً لضمان إحراز النصر على أعدائه وحاول أن يجد أكثر من طريق وسبيل لتحقيق النصر على أعدائه. كان الملك الظاهر شديد الحرص على سرية تحركاته العسكرية ضد أعدائه فباغتهم بها إذ لم تكن انتصاراته العديدة ضربة من ضربات الحظ حققها في غفلة من الزمن، وأخيراً تمكن الملك الظاهر من تحجيم التحالف الأرميني المغولي فلم يتمكن الأرمن والمغول والصليبيون في

حياته من القيام بعمل عسكري موحد ضده حتى سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م)، إذ شارك الأرمن والكرج والمغول في معركة كبيرة ضد المماليك في معركة حمص، بعد وفاة الملك الظاهر باربع سنوات.

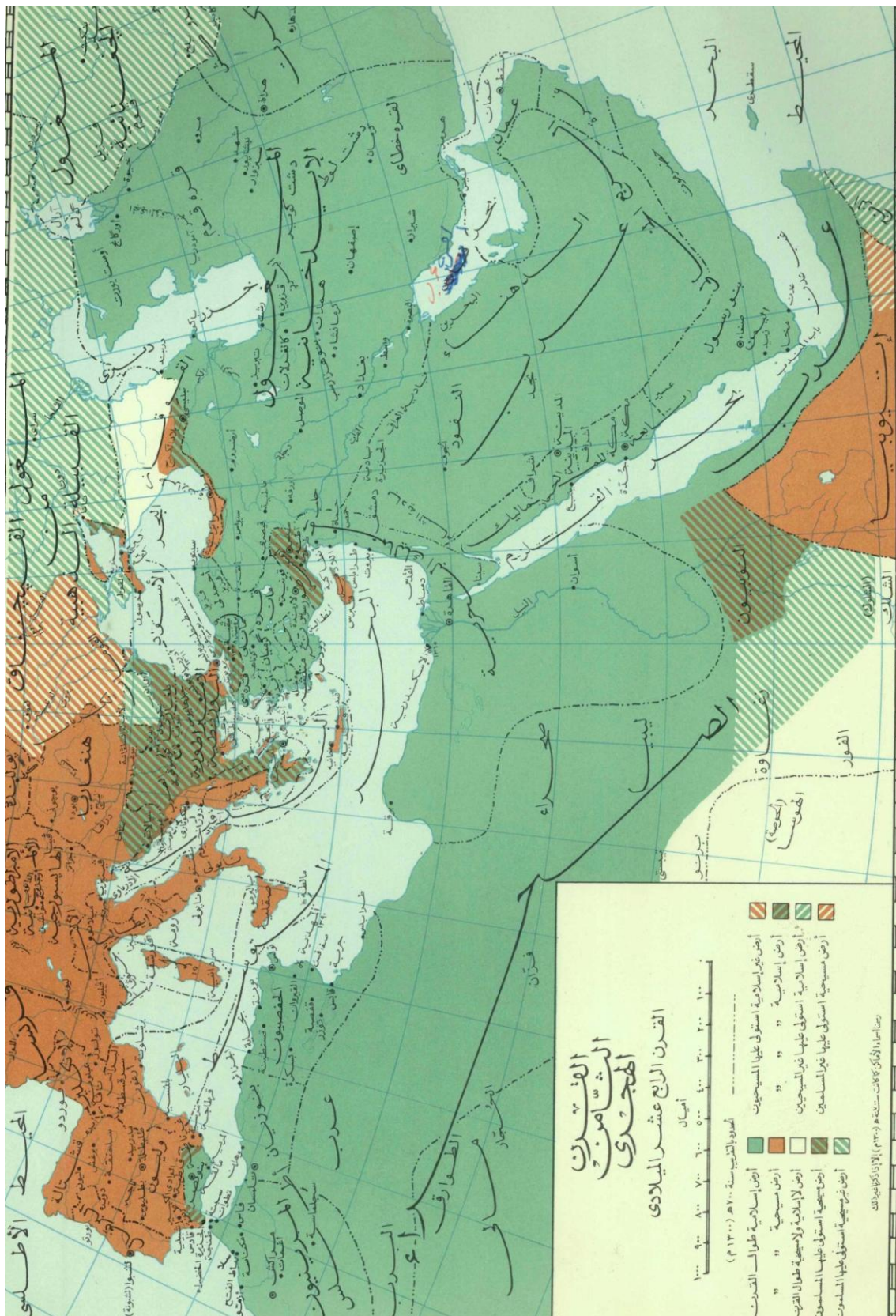
الهوامش : -

- (١) رشيد الدين فضل الله الهمداني، **جامع التواريخ**، نقله إلى العربية، محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه: يحيى الخشاب، (القاهرة، دار إحياء الكتب المصرية، ١٩٦٠م)، ٢/١/٢٠١، فؤاد عبد المعطي الصياد، **المغول في التاريخ** (بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠)، ٢٧٩.
- (٢) هيتوم بن قسطنطين بن باساك الارمني، تولى حكم مم لكة ارمينية الصغرى منذ سنة (٦٢٢ هـ / ١٢٦٩م)، فتخلّى عن الحكم فيها لابنه وتوفي سنة (٦٦٩هـ/١٢٧١م)، للمزيد ينظر:
- Ency , Brit , Vol : IV , P , 949 .
- (٣) كان مقر حكم خان المغول منذ عهد جنكيز خان في منغو ليا حتى عهد قوبلاي خان، الذي اتخذ بكين عاصمة له في الصين، ينظر الصياد، المرجع السابق، ٢٢٠.
- (٤) غريغورس أبو الفرج بن اهرن الملطي المعروف بابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، صححه وفهرسه انطوان صالحاني اليسوعي، (بيروت، دار رائد اللبنانية، ١٩٨٣م)، ٤٤٨؛ ينظر أيضاً، ستيفن رنسيمن، **تاريخ الحروب الصليبية**، نقله إلى العربية، السيد الباز العريني، (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠)، ٣/٥٠٩.
- (٥) ابن العبري، المصدر السابق، ٤٦٠؛ ينظر أيضاً الصياد، المرجع السابق، ٢١٤-٢١٥.
- (٦) رنسيمن، المرجع السابق، ٣/٥١٢ .
- (٧) الصياد، المرجع السابق، ٢٩١ .
- (٨) دير كوش، وهو حصن قرب مدينة انطاكية من اعمال العواصم، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت، دار صادر، ١٩٥٥م)، ٢/٤٥٢ .
- (٩) شقيف تلمنس: حصن قرب معرة النعمان، ينظر ياقوت، المصدر السابق، ٢/٤٤ .
- (١٠) شقيف دببن: قلعة قرب مدينة إنطاكية، ياقوت المصدر السابق، ٣/٣٥٦ .
- (١١) محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (المنسوب إليه)، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، (الرياض، مطابع القوات المسلحة، ١٩٧٦م)، ٣٢٤.
- (١٢) K.M .Setton, **Ahistory of the Crusaders** , Pennsylvani , 1958 , p 57
- (١٣) الصياد، المرجع السابق، ٢٥٨ - ٢٥٨ .
- (١٤) ابن العبري، المصدر السابق، ٢٨٠، الصياد، المرجع السابق، ٢٩٨ .
- (١٥) عين جالوت، مدينة صغيرة في فلسطين بين بيسان و نابلس، ينظر ياقوت، المصدر السابق، ٣/٧٦ للمزيد عن المعركة واثارها الايجابية ينظر محمد مختار العبادي، **الدولة المملوكية الأولى**، (بيروت، دار النهضة، ١٩٦٩م)، ١٦٣ - ١٧١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١، ٢/١١٣٣ - ١١٣٩؛ فايد حماد عاشور، **العلاقات السياسية بين المغول والمماليك**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦، ٥١ - ٥٤ .

- (١٦) الهمداني، المصدر السابق، ٣٣٦/١/٢ .
- (١٧) المصدر نفسه، ٥٦/٢/٢ .
- (١٨) المصدر السابق، ١٩٢ .
- (١٩) هو غطاء الرأس لدى المغول.
- (٢٠) حارم، حصن تجاه انطاكية من اعمال حلب، ياقوت، المصدر السابق، ٢٠٥/٢ .
- (٢١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٢٤ - ٢٥ .
- (٢٢) صفوان طه حسن الناصر، مراسلات الملك الظاهر بيبرس، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب جامعة الموصل، ٢٠٠٠ م، ٢٤ - ٢٥ .
- (٢٣) محمد بن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، (بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م)، ٢٠ / ٣١٩ .
- (٢٤) عبد الله بن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، (القاهرة، مطبعة عيسى البابي، ١٩٧١م)، ٨ / ١١٧ .
- (٢٥) حول ذلك ينظر حملة لويس التاسع على مصر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)، رنسيان، المرجع السابق، ٣ / ٤٤٩ وما بعدها.
- (٢٦) سيرة الظاهر بيبرس (الشعبية)، مصر، مكتبة عبد الحميد احمد صوفي، د/ت .
- (٢٧) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٨٨ - ٨٩، الناصر، المرجع السابق، ٢٨ - ٢٩ .
- (٢٨) بيت جوجي او بيت بركة خان، ويسمون أيضاً بالقبيلة الذهبية نسبة الى لون خيامهم وجوجي هذا هو احد ابناء جنكيز خان كان له نصيب من غنائم جيش هولاكو فضلاً عن نصيب من اراضي اذربيجان واران التي استولى عليه هولاكو ومنع وصول أي اموال منها، الأمر الذي أثار بركة خان الى حد المواجهة العسكرية، ينظر، م. م الرمزي، تلفيق الاخبار وتلويح الاثار في وقائع فزان وبلغار وملوك التتار، (اورنبرغ، المطبعة الكريمة الحسينية، ١٩٠٨م)، ١ / ٤٢٧ .
- (٢٩) الهمداني، المصدر السابق، ٣٣٣/١/٢ .
- (٣٠) المصدر نفسه، ٥٤-٨/٢/٢؛ ابن أبيك، المصدر السابق، ١٤٠/٨-١٤١، ١٤٦-١٥٠ .
- (٣١) بيبرس المنصور، مختار الأخبار، حققه عبد الحميد صالح حمدان، (القاهرة، الدار المصرية- اللبنانية، ١٩٩٣ م)، ص ٣١ - ٣٢ .
- (٣٢) هو الملك المنصور ناصر الدين ابن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه الأيوبي، تولى الحكم سنة (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م)، كان ملكاً جليلاً محباً للعلم والعلماء قرب اليه العديد منهم واشهرهم المؤرخ الكبير ابن واصل الحموي، توفي المنصور سنة (٦٨٣ هـ / ١٢٨٥م)، ينظر ابن أبيك، المصدر السابق، ٢٦٦/٨ - ٢٦٧ .
- (٣٣) مفضل ابن ابي الفضائل، النهج السديد والعقد الفريد في تاريخ ما بعد ابن العميد، تحقيق: بلوشيت، باريس، ١٩٢٨ - ١٩٣٢، ١ / ٤٩٤-٤٩٦ .
- (٣٤) تعريب كلمة (constable) وهو آمر حرس القلعة مهمته بمن معه من الجند حراسة القلعة وما حولها.
- (٣٥) حموص من أعمال حلب وهي على اربعة فراسخ من حلب شرقي تل حمدون، ينظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة (القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د/ت)، ٣ / ٢٧٤ .

- (٣٦) لم أجد لها ذكر في كتب الجغرافية التاريخية.
- (٣٧) تقي الدين احمد المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧م)، ١/٢/٥٥٢.
- (٣٨) عاصمة ارمينية الصغرى، تقع بين انطاكية وطرطوس، ياقوت، المصدر السابق، ٢/٢٩٧.
- (٣٩) المصبصة، وهي مدينة على شاطئ نهر جيجان من نغور الشام، بين انطاكية وبلاد الروم، ياقوت، المصدر السابق، ١٤٥/٥.
- (٤٠) اياس، بلدة كبيرة من بلاد الأرمن على ساحل البحر، ينظر إسماعيل ابن علي المعروف بابي الفنا، تقويم البلدان، (بغداد، طبع بالافسيت مكتبة المثني، د/ت)، ٢٤٨ - ٢٤٩.
- (٤١) طرطوس، وهي مدينة بنغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم، ياقوت، المصدر السابق، ٢٨/٤.
- (٤٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٢٧٠.
- (٤٣) المصدر نفسه، ٣٧٤.
- (٤٤) الهمداني، المصدر السابق، ٢/١/٣٣٢ - ٣٣٦، ٢/١٣ - ١٤؛ ينظر ايضا الصياد، المرجع السابق، ٣٢٢ - ٣٢٣.
- (٤٥) شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، مطابع القوات المسلحة، ١٩٧٦، ١٠٢.
- (٤٦) تملكها الصليبيون في سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) ينظر رنسيما، المرجع السابق ٣/٥٥٩.
- (٤٧) المنصوري، المصدر السابق، ٣٦.
- (٤٨) ابن ابيك، المصدر السابق، ٨/١٢٦؛ رنسيما، المرجع السابق، ٣/٥٥٧.
- (٤٩) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٠٧؛ الناصر، المرجع السابق، ٨٣ - ٨٥.
- (٥٠) عماد الدين اسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، (بيروت، مطبعة المعارف، ١٩٦٦م)، ١٣/٢٥٢.
- (٥١) رنسيما، المرجع السابق، ٣/٥٥٨.
- (٥٢) ابن ابي الفضائل، المصدر السابق، ١/٥٠٨.
- (٥٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٢٤ - ٣٢٥.
- (٥٤) الناصر، المرجع السابق، ٩٢ - ٩٣.
- (٥٥) ابن العبري، المصدر السابق، ٤٩٩.
- (٥٦) ابن علي، المصدر السابق، ١٣٦.
- (٥٧) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٢٨.
- (٥٨) بهسنا: قلعة حصينة تقرب من مرعش وسيمساط من اعمال حلب، ياقوت، المصدر السابق، ١/٥١٦.
- (٥٩) مرزبان: لم أجد لها تعريف في المصادر الجغرافية التاريخية.
- (٦٠) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسيمساط قرب الفرات، ياقوت، المصدر السابق، ٣/٥١.
- (٦١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٢٨ - ٣٢٩.
- (٦٢) ابن علي، المصدر السابق، ١٤٤.
- (٦٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٣٩ - ٣٤٢؛ الناصر، المرجع السابق، ١٠٥ - ١٠٧.
- (٦٤) الهمداني، المصدر السابق، ٢/٢/٥٦؛ ينظر أيضاً، الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، (الرياض، ١٩٧٦م)، ٥١.

- (٦٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٣٩٩ - ٤٠٠ .
- (٦٦) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ٤٣٢ .
- (٦٧) ابن ايبك، المصدر السابق، ١٥٨/٨ - ١٥٩؛ رنسيان، المرجع السابق، ٥٧٣/٣ .
- (٦٨) شافع بن علي، **الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٨م)، ٨١ .
- (٦٩) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ٥٠ .
- (٧٠) كينوك، **تعني المحرقة (أو الحدث الحمراء)** من اعمال سيس؛ ينظر ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق، ٤١٧ .
- (٧١) ابن علي، حسن المناقب، ١٥٦ .
- (٧٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٤٣٢ .
- (٧٣) آل مهني، بطن من بطون طي المشهورة استوطنت شمال بلاد الشام وكان لهم دور كبير في قتال الصليبيين والمغول، للمزيد ينظر عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، (بيروت مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩م)، ١٠-٥/٦ .
- (٧٤) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ٤٣٣ .
- (٧٥) المنصوري، المصدر السابق، ٥٤ .
- (٧٦) البلستين؛ وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم، ياقوت، المصدر السابق، ٧٥/١ .
- (٧٧) عز الدين محمد بن ابراهيم بن شداد ، **تاريخ الملك الظاهر**، اعتناء احمد حطيط، (بيروت، مركز الطباعة الحديثة، ١٩٨٣، ١٥٤ - ١٥٥؛ ابن ايبك، المصدر السابق، ١٩٨/٨-٢٠١ . فايد عاشور، المرجع السابق، ١٠٥-١٠٦ .



نقلا عن : أطلس التاريخ الإسلامي ؛ صنفه : هاري .و. هازارد ، رسم خرائطه : سميلي وكوك ، ترجمه وحققه : إبراهيم خورشيد ، راجعه محمد مصطفى زيادة ، (القاهرة، مكتبة النهضة، د /ت)، ص ٢١.